

ابن الجزار القيرواني

طبيباً ومؤرخاً

٢٩٣-٣٧٣هـ/٩٠٦-٩٨٤م

أ.م.د. سادسة حلاوي

كلية التربية/ جامعة واسط

المقدمة

كان علم الطب من أهم العلوم التي أبدى العرب المسلمون اهتماماً ملحوظاً بدراساتها، اذ ورد عن الرسول (ﷺ) انه حث على الاهتمام بدراسة الطب بقوله: "العلم علما علم الأديان وعلم الأبدان"، لذا فقد دأب علماء العرب على تطوير الموروث العربي الطبي، وتتبع أهم ما توصل اليه علماء اليونان في اغناء هذا الجانب، فانكبوا على ترجمة الكتب الطبية اليونانية ودراساتها وتشخيص مواضع الخطأ فيها بعد ان توصلوا الى اكتشافات رائعة بالتجربة والتطبيق العلمي، كما رقدوا علم الطب باضافات قيمة أسهمت في تطويره فكان أهم ما توصل اليه العرب من تقدم علمي منذ القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي، فبرز على أثر ذلك عدد كبير من الأطباء الذين دوت أسماؤهم ومؤلفاتهم وانجازاتهم الطبية في جميع أنحاء أوربا، وكان من بين أولئك الأطباء أطباء المغرب والأندلس الذين أسهموا في تلك النهضة الطبية يضاف الى دور أطباء المشرق الاسلامي بل ان اطباء المغرب والأندلس كان لهم الأثر الفاعل في نقل العلوم الطبية الى أوربا كون ان الأندلس كانت أحد أهم المعابر الرئيسية لنقل التراث العلمي الطبي العربي الى أوربا، ومما لا شك فيه ان أعظم أطباء القيروان خلال القرن الرابع الهجري والذي قدر له أن يحتل مركز الصدارة، كان المتطبب أبا جعفر أحمد بن ابراهيم بن أبي خالد ويعرف بابن الجزار حوالي سنة (٢٩٣-٣٧٣هـ/٩٠٦-٩٨٤م)، من أهل القيروان، طبيب ابن طبيب وعمه أبو بكر طبيب وكان ممن لقي اسحق بن سليمان^١، وأخذ عنه. وكان ابن الجزار من أهل الحفظ والتطلع والدراسة للطب وسائر العلوم والفهم لها.

ينتمي ابن الجزار الى اسرة اشتهرت بالطب فأبوه كان طبيباً وكذلك عمه محمد بن أحمد، وقد كان عالماً بالطب حسن النظر فيه^٢.

كما كان له تأثير كبير في تطوير العلوم الطبية لافي شمال أفريقيا بل في الأندلس العربية وفي أوربا عامة بعد ترجمة كتبه الى اللغة اللاتينية وغيرها. قال صاعد: كانت الأندلس قبل تغلب بني أمية عليها خالية من العلم لم يشتهر عند أهلها الاعتناء به ولم تزل على ذلك عاطلة من الحكمة الى أن افتتحها المسلمون سنة ٩٢هـ فتمادت على ذلك أيضاً لا يعنى أهلها بشيء من العلوم الا بعلوم الشريعة وعلم اللغة الى أن توطد الملك لبني أمية بعد عهد أهلها بالفتنة فتحرك ذوو الهمم منهم بطلب العلوم وتنبهوا لاشارة الحقائق^٣.

وذكر ابن جزل: ان أحمد بن أبي خالد كان قد اخذ لنفسه مأخذاً عجيباً في سمته وهديته وتعدده ولم يحفظ عنه بالقيروان زلة قط ولا اخذ الى لذة وكان يشهد الجنائز والعرائس ولا يأكل فيها ولا يركب قط الى أحد

من رجال افريقيا ولا الى سلطانهم الا ابن أبي طالب عم معد، وكان صديقاً قديماً فكان يركب اليه يوم الجمعة لا غيرها^٤.

وكان ينهض في كل عام الى رابطة على البحر المستنير وهو موضع مرابطه مشهور البركة، مذكور في الأخبار على ساحل البحر الرومي فيكون هنالك طوال أيام القيظ ثم ينصرف الى افريقيا، وكان قد وضع على باب داره سقيفة اقعد فيها غلاما له يسمى برشيق، اعد بين يديه جمع المعجونات والأشربة والأدوية، فاذا رأى القوارير (قناني البول) بالغدة أمر بالجوار الى الغلام وأخذ الادوية منه بنزاهة نفسه أن يأخذ من أحد شيئاً^٥. قال ابن جليل: حدثني عنه من أثق به قال: كنت عنده في دهليز وقد غص بالناس اذ أقبل ابن اخي النعمان القاضي وكان حدثاً جليلاً بأفريقية يستخلفه القاضي اذا منعه ممانع عن الحكم فلم يجد في الدهليز موضعاً يجلس فيه الا مجلس لأبي جعفر فخرج أبو جعفر وقام له ابن اخي القاضي على قدم فما أقعده ولا نزله واره قارورة ماء كانت معه لابن عمه النعمان واستوفي جوابه عليها وهو واقف ثم نهض وركب وما كدح ذلك في نفسه وجعل يتكرر اليه بالماء في كل يوم حتى برئ العليل قال، قال الذي حدثني: فكنت عنده ضحوة النهار اذ أقبل رسول القاضي بكتاب شكره فيه على ما تولى من علاج ابنه ومعه منديل بكسوة وثلمائة مثقال فقرأ الكتاب وأجابه شاكراً ولم يقبض المال ولا الكسوة فقلت له: يا ابا جعفر رزق ساقه الله اليك قال لي: والله لا كان لرجال معد قبلي نعمه وعاش أحمد ابن الجزار نيفاً وثمانين سنة ومات غنياً بالقيروان ووجد له أربع وعشرون الف دينار وخمسة وعشرون قنطاراً من كتب طبية وغيرها، وكان قد هم بالرحلة الى الأندلس ولم ينفذ ذلك وكان في دولة معد^٦.

مصنفاته:

اشتهرت تأليف ابن الجزار خلال مدة حياته وبعد مماته، عاش حوالي ثمانين عاماً، وكان له مكتبة طبية وتاريخية بديعة كاملة، وقد ذكر ابن ابي أصيبعة أن له سبعة وعشرين تصنيفاً ليس في العلوم الطبية فقط بل أيضاً في التاريخ والجغرافية والأدب، ومن أهمها:

- ١- كتاب في علاج الأمراض يعرف بزاد المسافر - مجلدان.
- ٢- كتاب في علاج الأدوية المفردة ويعرف باعتماد المسافر.
- ٣- كتاب في علاج الأدوية المركبة ويعرف بالبعية.
- ٤- كتاب العدة لطول المدة، وهو أكبر كتاب وجدناه له في الطب^٧.
- ٥- وحكي صاحب جمال الدين القفطي، أنه رأى له كتاباً كبيراً في الطب اسمه قوت المقيم وكان عشرين مجلداً^٨.
- ٦- كتاب التعريف بصحيح التاريخ، وهو تاريخ مختصر يشتمل على وفيات علماء زمانه وقطعة جميلة من اخبارهم.

٧- رسالة في النفس وفي الذاكرة اختلاف الأوائل فيها.

٨- كتاب في المعدة وأمراضها ومداواتها.

- ٩- كتاب طب الفقراء.
- ١٠- رسالة في ابدال الأدوية.
- ١١- كتاب في الفرق بين العلل التي تتشابه أسبابها وتختلف أعراضها.
- ١٢- رسالة في التخدر من اخراج الدم من غير حاجة دعت الى اخراجه.
- ١٣- رسالة في الزكام وأسبابه وعلاجه.
- ١٤- كتاب الخواص.
- ١٥- كتاب نصائح الابرار.
- ١٦- كتاب المخدرات.
- ١٧- كتاب في نعت الاسباب المولدة للوباء في مصر وطريق الحيلة في دفع وعلاج ما يتخوف منه.
- ١٨- رسالة في النوم واليقظة.
- ١٩- مجربات من الطب.
- ٢٠- مقالة في الجذام وأسبابه وعلاجه.
- ٢١- رسالة في بعض أخوانه في الاستهانة بالموت.
- ٢٢- رسالة في المعدة وأوجاعها.
- ٢٣- كتاب المكمل في الادب.
- ٢٤- كتاب البلغة في حفظ الصحة.
- ٢٥- مقالة في الحمامات.
- ٢٦- كتاب أخبار الدولة الفاطمية يذكر فيه ظهور المهدي في المغرب.
- ٢٧- كتاب الفصول في سائر العلوم والبلاغات^٩.

مؤلفاته الطبية:

- ١- كتاب الخواص:
- وله ترجمة بالعربية واخرى باللاتينية.
- ٢- الاعتماد في الأدوية المفردة:
- ترجمه الى اللاتينية اسطنين السرقسطي سنة ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م، كما ترجمه الى العبرية موسى بن طيبون، وترجمه الى اللاتينية قسطنطين الأفريقي وانتحله لنفسه.
- ٣- رسالة في ابدال الأدوية:
- وتوجد نسخة منها في مكتبة أحمد خيرى في البحيرة بمصر والأخرى بمكتبة برلين باسم كتاب الابدال والأخرى في الأسكو ريال باسم اعداد العقاقير.
- ٤- كتاب زاد المسافر وقوت الحاضر:

أهم كتب ابن الجزار/ في مجلدين في سبع مقالات خاص في صفوف الامراض الباطنية والظاهرة، والمخطوطة العربية موجودة في مكتبة باريس الأهلية والفاتيكان وفلونس والاسكوريال ورامبور وبدولينا باكسفورد. وفي المقدمة يهدي ولاءه لاحد أفراد العائلة العبيدية المالكة الذي قد يكون عم الخليفة المعز الفاطمي ملك من سنة ٣٤١-٣٦٥ هـ وقد ادخل كتاب زاد المسافر الى الأندلس بواسطة أحد تلاميذه النجباء الذي أصبح طبيباً أيضاً واسمه عمر بن حفص بن ابريق^{١٠}.

ونظراً لأهمية هذا الكتاب وانتشاره في الاوساط العلمية حتى قال فيه الشاعر كشاجم (ت ٣٦٠ هـ) وذلك بعد رفقة طويلة مادحاً:

أبا جعفر بقيت حياً وميتاً	مفاخر في طهر الزمان عظماً
رأيت على زاد المسافر عندنا	من الناظرين العارفين زحماً
فايقنت انه لو كان حياً لوقته	لما سمي التمام تماماً
سأحمد افعالاً لاحمد لم تنزل	مواقعها عند الكرام كراماً ^{١١}

٥- طب الفقراء والمساكين:

ويبحث في الادوية الرخيصة الثمن ومخطوطته بمكتبة غوته والاسكوريال وقد ترجم الى العبرية. كان الدافع الى تأليف هذا الكتاب بحسب قول مؤلفه: "اني رأيت كثيراً من الفقراء وأهل السكنة عجزوا عن ادراك منافع ذلك الكتاب" فأراد أن يؤلف لأجلهم كتاباً سهل المأخذ يرجع اليه الفقراء للمداواة والنصح أو في حالة تعذر استحضار الطبيب حالاً مما جعله حافزاً لتأليف طبيب الفقراء والمساكين^{١٢}.

٦- طب المشايخ وحفظ صحتهم:

"دار الكتب المصرية ومكتبة أحمد خيرى بالبحيرة في مصر".

٧- سياسة الصبيان وتدريبهم:

باب يبحث في تدبير المولودين في حالتي الصحة والمرض من مخطوطاته واحدة في الاسكوريال وأخرى في تاتيانا حققه محمد الحبيب الهيلة ونشر في تونس ١٩٧٩م ويضم الكتاب معلومات في صفات المرضى وطعامها ولبنها وفيمن يصيب الطفل بحسب سنه من الأمراض كالاسهال ورطوبة الاذنين والتهاب السرة ونتوئها ونحو ذلك وكذلك فيه باب في معالجة العضة في رأس الطفل وورم اليافوخ وانتفاخ البطن وأبواب أخرى في داء الصرع عند الصبيان والوجع عند خروج الأسنان وقروح الأسنان وقروح الفم وفي أسباب القيء وفي الحيات والدود المتولد في الأمعاء وفي الحصى المتولدة في المثانة وغير ذلك.

٨- كتاب الكلى والمثانة:

ورد ذكره في كتاب سياسة الصبيان للمؤلف نفسه.

٩- كتاب مداواة النسيان وطرق تقوية الذاكرة:

ولهذا الكتاب ترجمة لاتينية، أما صيغته العربية فتعد من المفقودات.

١٠- كتاب في المعدة وأمراضها ومداواتها:

ورد ذكره في كتاب طب المشايخ للمؤلف ويتكون من أربعة فصول ونسخة منه في مكتبة الاسكوريال وأخرى في المتحف العراقي باسم طب المعدة نشره سلمان قطانة -بغداد- سنة ١٩٨١م.

١١- كتاب المالنخوليات:

ومنه مخطوطة مجموعة مع كتاب الكلى والمثانة للمؤلف بمكتبة بودليانا.

١٢- مجربات في الطب: وهو في الطب الشعبي غير العلمي.

١٣- أصول الطب: وقد ذكره في كتاب طب المشايخ للمؤلف نفسه.

١٤- كتاب البغية: ويبحث في الأدوية المركبة ومخطوطته بمكتبة جراح بحلب.

١٥- البلغة في حفظ الصحة - مفقود.

١٦- رسالة في التخدير من اخراج الدم من غير حاجة دعت الى اخراجه - مفقود.

١٧- رسالة في الزكام واسبابه وعلاجه -مفقود.

١٨- رسالة في المعدة وأوجاعها.

١٩- رسالة في النوم واليقظة^{١٣}.

٢٠- كتاب العطر ذكره في كتابه طب المشايخ -مفقود.

٢١- كتاب العدة لطول المدة -مفقود.

٢٢- قوت المقيم في الطب -عشرون مجلداً.

٢٣- التفريق بين العلل التي تتشابه أسبابها وتختلف أعراضها.

٢٤- كتاب السموم -ورد ذكره في كتاب الجامع لابن البيطار.

٢٥- مقالة في الجذام وأسبابه وعلاجه وقد ترجمها قسطنطين الافريقي الى اللاتينية وانتحلها لنفسه.

٢٦- كتاب نصائح الابرار -ذكر في طب المشايخ -مفقود.

٢٧- كتاب النصيح.

٢٨- رسالة في أسباب الوفاة^{١٤}.

مؤلفاته غير الطبية:

١- كتاب أخبار الدولة الفاطمية:

ذكر فيه أخبار الفاطميين وكان قد اعتمد هذا الكتاب من بعده المؤرخ ابن حيان في كتابه المقتبس في

أنباء اهل الأندلس والقاضي عياض في كتابه ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك كما

اعتمده ياقوت الحموي في معجم البلدان وآخرون.

٢- كتاب مغازي افريقيا في فتوحات العرب لتونس.

٣- عجائب البلدان -وهو في الجغرافية.

٤- كتاب في فنون الطب والعطر -مخطوط في مكتبة صاحب بانقرة.

٥- كتاب الأحجار^{١٥}.

ذكر القفطي انه رأى كتاباً كبيراً في الطب يقع في عشرين مجلداً وذكر المستشرق كامبل Campell ان كتابه الذي ترجم الى اللاتينية في القرون الوسطى باسم *viaticum - peregrinatys* و اشار المستشرق الانكليزي براون Brown الى أتابن الجزار مارس في فترة من فترات حياته قرصنة البحار وهذا لا يتفق مع ما ذكره ابن جلجل من سجايا ابن الجزار الرفيعة الذي قال عنه انه لم تحفظ عنه بالقيروان زلة قط ولا أخذ الى لذة^{١٦}.

وفاته:

اختلفت المصادر في تحديد سنة وفاته، ولكن بعضها ذكرت انه توفي خلال السنين الأولى من خلافة العزيز بالله الفاطمي (٣٦٥-٣٨٦هـ/٩٧٥-٩٩٦م) والذي خدمه في الطب بالقيروان وقد تحولت القيروان الى العاصمة المصرية، بالرغم من كثرة الأطباء وشهرتهم في تونس خلال هذه الفترة ولكن أصبحت القاهرة المعزية مركز ثقل علمي واقتصادي وسياسي وعمراني وحضاري خلال العصر الفاطمي الزاهر.

أما ابن أبي أصيبعة فلم يذكر تاريخ ولادته أو وفاته بل اكتفى بالقول انه ولد وعاش ومات بالقيروان عن عمر ناهز الثمانين، فيما ذكر الكمال الحموي انه عاصر النعمان من فقهاء الاسماعيلية الذي مات في مصر سنة ٩٧٤م.

الهوامش والمصادر

- ١- ابن ابي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق د. نزار رضا (بيروت - ١٩٦٥)، ص ٤٨٠-٤٨١؛ انظر ترجمته: الكمال الحموي، نور العيون، ص ٦٥٠؛ لزيادة المعلومات انظر ايضاً: احمد شوكت، تاريخ الطب وادابه وأعلامه، ص ٧٩؛ عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين، ص ١٣٧.
- ٢- ابن جلجل، طبقات الأطباء والحكماء، ص ٨٨؛ صاعد الاندلسي، طبقات الأمم، ص ٤٨.
- ٣- صاعد الاندلسي، طبقات الأمم، ص ٤٨؛ انظر: ايضاح المكنون، وكالة المعارف الجليلية، المجلد الأول، ص ٢؛ كوركيس عواد، مصادر النباتات الطبية عند العرب، ص ١٩.
- ٤- ابن جلجل، المصدر نفسه، ص ٨٨-٨٩؛ انظر ايضاً عمر فروخ، تاريخ العلوم عند العرب، ط ٢، ص ٢٨٢؛ عمر فروخ، تاريخ الفكر العربي، ط ٤، ص ٨٧.
- ٥- ابن جلجل، المصدر نفسه، ص ٨٧.
- ٦- ابن جلجل، المصدر نفسه، ص ٨٨؛ صاعد الاندلسي، طبقات الأمم، ص ٤٨؛ انظر ايضاً الحموي، معجم الادباء، ج ٢/ ص ١٣٦-١٣٧.
- ٧- ابن ابي اصيبعة، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، ص ٤٨٠.
- ٨- القفطي، تاريخ الحكماء، ص ١٨٧؛ مجلة دراسات اندلسية، العدد الثامن، ١٩٩٢، ص ٤٣-٤٤.
- ٩- ابن ابي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ١٨٧؛ مجلة دراسات اندلسية، العدد الثامن، ١٩٩٢، ص ٤٣-٤٤.
- ١٠- ابن ابي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٨٢؛ انظر: حاجي خليفة، كشف الظنون، ج ٢/ ص ٩٣٧.
- ١١- ابن ابي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٨٢؛ زنجريد هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ص ٣٤٨.

- ١٢- ابن ابي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٨٢؛ انظر: ابن جليل، طبقات الاطباء، ص ٨٨؛ سامي خلف وجماعته، تاريخ تراث العلوم الطبية، م ١/ ص ٢٧٢-٢٧٩.
- ١٣- ابن ابي اصيبعة، عيون الانباء، ص ٤٨٢؛ انظر: ايضاح المكنون، م ٢؛ الكمال الحموي، ص ٦٥٠؛ انظر ايضاً: سامي خلف، تاريخ تراث العلوم الطبية، ص ٢٧٦.
- ١٤- ابن ابي اصيبعة، المصدر نفسه، ص ٤٨٣، ص ٤٨٤؛ معجم الادباء، ج ٢/ ١٣٧.
- ١٥- صاعد الاندلسي، طبقات الأمم، ص ٤٨.
- ١٦- زيغزير هونكة، شمس العرب تسطع على الغرب، ط ٤/ ص ٣٤٨؛ انظر: الدكتور شاهين، أثر العرب في الطب، ص ١٥؛ انظر ايضاً: مقدمة في تاريخ الطب العربي، ط ١، ص ١١٣.

